الفصل الخامس

نماذج من مقالات
العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلى نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيرًا للتعريف بموضوعاتها وملابساتها.

الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ مقاله تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل، ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت:

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها إلى أراضى البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبله لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد

أهلا خيرًا من أهله وسكنًا خيرًا من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبت الألسن.

«وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوربية العظيمة، وكأن المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكمًا ربما لم يكن بعيدًا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمرًا مقررًا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر. غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبى وخار الأفين[1]. فقرب البعيد وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا فى حواشى طوامير[2] الأوهام ولا حول ولاقوة إلا بالله.

«ألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب. وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن.

---

(١) أفن أفنا: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون.

(٢) الطومار: الصحيفة وجمعها طوامير.

«قضــاء حل بتلــك البلاد فاحتاجت فى إعادة شــأنها الأول إلى رأى قويــم وعــزم ثابت ووازع قوى تدين لســطوته النفوس وإن من ذوى الحقــوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يســهل عليــه القيام بما يعهد إليــه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة.

«أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقــدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها، فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شــاكل ذلك ممــا لا حاجة لبيانه، وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اســمه أحد إلا مسه ضرمه[١] ما خلا أشــخاصًا قلائل، وهــذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ولم يأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

«أليســت المالية هى مرمى أنظــار دول أوربا وما وضع نظام فى البــلاد ولا أحدث تغيير بمشــورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عــن أداء ما يتعلق بها من الحقــوق الأوربية، اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد وحملت من تعويضــات متالف الحرب[٢] أربعة ملايين

(١) الضرم: اللهب.

(٢) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخســائر والأضرار التى لحقت بالجاليات الأجنبية فى حوادث ســنة ١٨٨٢

من الجنيهـات ورميت بنفقات جيش الحلول[1] وحرب السـودان ومصاريف أخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المسـتقبل، فاختلـت الموازين وبطل قانون الجبايـات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة.

«عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجاراة محمد على وإبراهيم اللذين دوخا كثيرًا من الأقطار بجنود مصرية.

«واأسـفا على حالة الأهالى بعد هذا، حكـم من لا دافع لحكمه بطـرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائـر الحكومة وما منهم أحـد إلا ويتبعـه عائلة وأولاد ولا قوت لهـم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم يعضهم ناب الجوع ألم يهتك مسـتورهم؟ ألم يضق ذراعهم ألم يصبحوا كسـاة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية المسرة؟ إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والأفرنجية وسـيتبع السـابقين منهـم اللاحقون حتى لا يجد وطنى فى البـلاد من المهن إلا ما لا

وخاصة مذبحة الإسـكندرية فى ١٠ يونيه سـنة ١٨٨٢م وضرب الإسكندرية بقنابل الأسـطول البريطانى فى «يوليه» من ذلك العام. ومع أن المسـئول عن هذه الخسـائر الحكومـة البريطانية لأنها هى التى أحدثتها. ووقعـت فيها. فإن مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسيمة. وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه.

(١) جيش الاحتلال.

يليــق بالإنجليزى تعاطيه من سفاســف الأمور كمــا هو فى البلاد الهندية.

«اضطرب ميزان الســلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمــر على العمال وظنــوا أن لا تبعة عليهم فيمــا يعملون فانطلق ما غــل من أيديهــم وحكموا أهواءهم فــى أداء وظائفهــم فخطبوا وخلطوا، فعمت الســجون بأعيان الرعيــة ورفعت أذناب الكرابيج لتشــريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمراتٍ كســبهم وحدث نوع من الحكم المطلــق عزيــز المثال بعث عليهــم عذابًا من فوقهــم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شــيعًا وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

«غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات وتعطلت أشــغال المحاكم وشــخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمــة، فاتســع نطاق الفوضــى وارتفع حجاب المنعة وســرى التهــاون إلى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الســاعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصوات بالشــكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شــئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون مــن أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من

الضيــاع على رءوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشــية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وإلى مــا يجــددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويســتعينون به على نجاحها حســب العادة التى ألفوها، فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المســالك ولم يجدوا لســد حاجتهم ســبيلا، ففسدت الزراعة وانتقضت ثمراتها وانحطت الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان لايسمع إلا فى القصص وروايات القدماء. ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ فى اقتضائها، فعم العســر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيــدى ملايين من عمــال الصناعة وأعدم المزارعــون قاطبة إلا نزر يســير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبًا وسلبًا، باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلــى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضــاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

«وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتبــاع بواطل التهم وإن بعدت أو اســتحالت حتــى أخذ الفزع من القلــوب مأخذه وبلغ منهــا مبلغه، فلا ترى مــارًّا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شــرطى يقوده إلى الســجن أو

يقتضى منه فدا، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا؟.

«هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الألوان بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله، أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوربية تسمية ضيقًا وعناءً وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها.

«أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهرًا، كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها، نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها وإقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

«فـإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصـلاح الذى لا يمله الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بـلاد بنجاب (من الممالك الهنديـة) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشـئون المصرية فى هـذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى، فلينتظر إخواننا المصريون فإنا معهم من المنتظرين».

إنجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠مارس سنة ١٨٨٤م كتبت مقالة عن التواء السياسية البريطانية، ختمتها بأن الحل الوحيد للمسـألة المصرية لا يكون إلا على أيدى أهلها، قالت:

«إن المسـألة المصرية صبغت فى إنجلتـرا عدة صبغات من يوم نشـأتها، وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فـى الدن، حتى إذا مضى عليه زمـان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزداد إلا إشكالا ولا تزيد إنجلترا فى إنهائها إلا ارتباكًا.

«كان يود مسـتر (غلادسـتون)[1] أن ينهج فى سياسـته منهج سـلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصـده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى

(١) رئيس الوزراء البريطانى الذى وقع الاحتلال فى عهده.

مسـيره إلى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بيـن الرمال) ولا يظهر لـه أثر يقتفى أو كان كمـا يزعمون أو كما يدعـى ونـادى به على عهد (بيكونسـفيلد) من أنـه لا يميل إلى الفتوحات وهمه البعد بإنجلترا عن المدخلات فى الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحـوادث المصرية ألجأته إلى العدول عن مشـربه والتطور بغير طـوره، فتضاربت آراؤه وتـردد فى أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه فى السياسة وتوعر السبل على حكومتـه فى بلوغ ما تريد وحدث النـزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى فى إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة.

«الذى أباح لمسـتر (غلادستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل فى مصر بقوة السـلاح مـا زعمه من احتياج تلك البـلاد إلى إقرار الراحـة وتخليصهـا من خلل الفوضـى، وعلى إنجلتـرا أن تتولى إغاثتهـا ممـا وقعت فيه فمد يـده لوضع قواعـد العدالة وتخليص الحكومة مـن الضعف وإعادة الأمن إلى البـلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى إسـكندرية والحلـول فى ثكن القاهرة،

فيكون قد كسب أجرًا أو نال ملكًا جديدًا أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

«تتابعت الفتن وعلا لياقا[1] حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدى) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دقنه بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيلته ويهاجم الإنجليز مرة ثالثة.

«فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداولات فى المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه فى التعبير عن أفكار الوزراة، وفهم من بعض خطاباته أن فى نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل فى شرقى السودان وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية، فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلى، ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية

(١) اللياق: شعلة النار.

وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمراضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شىء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر.

«فإن انقلبت الوزارة الإنجليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة؟ أقبل الصيف وصعب على عساكر الإنجليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التليغراف انكشف للهنديين بتكرار طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترءوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر، فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنجليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من

أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوربيا وستون ضابطا مصريا نجوا من عساكر(هكس)[1]، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلي نيوز واعترف مستشار خارجية إنجلترا أن المواصلة بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة ١٨٨٤م) فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنجليزية فلا نظنه ألا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر بالمصالح الأوربية فى مصر (وليكن كذلك).

«ولا نظن أن دول أوربا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصا بعض الدول التى كانت تسابق إنجلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الإنجليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة (الطان) الفرنساوية الوزارية حيث تقول: إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوربا وتنوه به جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول إن روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فإن إنجلترا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شىء منها إلا باتفاق أوربا.

«هذا إذا تمكنت إنكلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتن وإجهاض الثورات واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففى نهايته تطالب

(١) الجنرال هكس قائد إنجليزى كان يقود جيشا من المصريين هزم فى موقعه ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢م أمام قوات المهدى.

عنـد أوربا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالـب على الظن أو طال عليهـا الزمان وهى بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز فى حركاتها العسـكرية شواطىء البحر فلا ريب أن القلق يسـتفز الدول لطلب وسائل أخرى سـوى ما تهيئه دولة إنجلترا، وإنا نرى وسـيحكم الزمان لنا إن شـاء الله أن حفظ حقوق الأوربيين وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدى أهلها. ويفعل الله ما يشاء».

عبث الإنجليز بالأمن فى مصر
وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤م

(إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة إلى جريدة (اسـتاندر)يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنجليزية) إلى إطلاق ألـف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة، وسـبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزنًا»[1].

(١) فى مارس سـنة ١٨٨٤م اسـتقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المسـتر كليفورد لويـد Clifford Liooyd وكيلًا لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة، فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية، وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شـئونها، ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤م أصدر أمره بالإفراج عن عدد كبير من السجناء

وفى عدد ٢٧ مارس ١٨٨٤م، نشرت مقالة عنوانها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)، أوضحت فيها أن علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء، فمن قائل إن الجرائد علاج ناجع فى إصلاح شئونها، وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة، وكيف أن كثيرًا من المتعلمين اتجهوا إلى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية، وانتهت المقالة إلى أن الواجب على الأمم الشرقية أن تتبع أصول دينها، ففى اتباعها ما يعيد إليها المجد والمنعة ويرقى بأخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها، قالت:

«أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورًا، ثم انشق عنها بماء العدم، فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان. عليها سياج من شدة البأس، ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل، وتنحل بأيدى بأيدى مديريها عقد المشاكل، نمت فيها أفنان العزة، بعد ما نبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتد لها السلطان على البعيد عنها

فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزراة بأن السجون ضاقت بالمسجونين، وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل. وإلى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤م السالف الذكر.

والدانــى إليها، ونفذت منها الشــوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة، فاســتغلت آدابها على الآداب، وســادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لســابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا ســعادة إلا فى انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

«وبعــد هذا كله وهى بناؤها، وانتثــر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشــقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعــا، وانحل ما كان منعقــدًا، وانفصمت عــرى التعــاون، وانقطعت روابــط التعاضد، وانصرفــت عزائم أفرادها عما يحفــظ وجودها، ودار كل فى محيط شــخصه المحدود بنهايــات بدنه، لا يلمح فى مناظــره بارقة من حقوقهــا الكلية والجزئية، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجته لا تنــال إلا على أيــدى الملتحمين معه بلحمــة الأمة، وأنه أحوج إلى شــد عضدهم من تقوية ســاعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقــة، وكأنه بهذه الغيبة فى ســبات يخيليه الناظر إليه صحوًا، وذبول يظنة المغرور زهوًا، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشــين فأبادها، وحدثت فيهم قناعة البهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى مايكسب ملته شــرفا، أو يعيد لهــا مجدا، عده هوســا وهذيانا، أصيب من ضعف فى المزاج، أو خلل فى البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعى

الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسـباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبـن وأغلالا من اليأس، فتغل يـداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحة ، ويقصـر نظره عن درك ما أتى أسـلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسـبوا، وقيمـا على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هـذا المرض من الأمة حدا يشـرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

«نعـم رأيت كثيـرا من الأمم لـم تكن ثم كانـت، وارتفعت ثم انحطـت، وقويت ثـم ضعفت وعزت ثم ذلـت وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل عله دواء؟ بلى.

واأسفا ما أصعب الدواء، وما أعز الدواء، وما أقل العارفين بطرق العلاج!.

«كيف يمكـن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهى لم تفترق إلا لأن كلاً عكف على شـأنه؟ أستغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشـد أعضائه اتصالا به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم ربما التفت إلى كل ماهو فى فطـرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدرى من أى وجـه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها؟ كيف

تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمانا غير قصير إلى ما ليس من معاليها؟ هلى من السهل رد التائة إلى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه، خصوصًا بعدما استدير المقصد، وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الحظوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسة خدر؟..

«هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها. وتتناءى أطرفها، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ما تراسم جهل وران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر؟ أيم الله إنه لشئ عسير يعيا فى علاجه النطاسى، ويحار فيه الحكيم البصير، هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه؟ إن كان المرض فى أمة فكيف الوصول إلىعلله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

«كلا، إنــه ليصعب على الطبيب الماهر تشــخيص واحد ســنو عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة علــة طويلة الأجل وافرة العــدد؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المتشــبهون بهم كثيرين، وكمــا أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنيــة لايزيد علاجــه المرض إلا شــدة، لولا مســاعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يقضــى بالمريض إلى الموت- كذلك يكون حال الذيــن يقومون بتعديــل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشــأنها وموجب اعتلالها، ووجــوده العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، ومــا يوجد فى أفرادها مــن المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعــة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولــى من الرفعة، ودرجتها الحالية مــن الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فإن أخطأ طالب إصلاحها فى اكتناه شــئ مما ذكرنا تحول الدواء دواء والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الإنسانى، ولــم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهى، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصــور فى أداء هذا الأمر العظيم علمًــا أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبــى الفخفخة الباطلة وطلاب العيش فى ظل وظائف ليســوا من حقوقها فى شئ.

«ظن القوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الهمم، وتنبية الأفكار، وتقويم الأخلاق - كيف

يصـــدق هذا الظن وإنا لـــو فرضنا أن كتاب الجرائـــد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض؟ فبعدما عم الذهول واســتولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكاتبون - لا نجد لها قارئا، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل مــا يجده على غير مــا يراد منه، بضيق في التصــور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا ســوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيــد الضرر أضعافًا، على أن الهمـــة إذا كانت في درك الهبوط، فمن يســتطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجـــه منها الرغبات لاســتطلاع ما فيها، مع قصر المدة، وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك عزيز.

«ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش، والتماس الشـــرف بالانتماء لمن ليس من جنســـها، لا مشـــربها، بل لمن كان خاضعا لسيادتها، راضخا لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتله بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرزالجديد المعـــروف بأوربا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمـــن قريب، ومتى عمت المعارف كملـــت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة، وما أبعد ما يظنون؟ فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به ســـلطان قوي قاهر، يحمل الأمـــه على ماتكره أزمانا

حتى تذوق لذتــه وتجنى ثمرته، ثم يكون ميلهــا الصادق من بعد نائبًا عن ســلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة، وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

«فإن قالوا: يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمــكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم ســبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟...

على أنا لو فرضنا مســأله الدهــر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفــى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد، والاســتزادة منها شــيئا فشيئا، فهل يصح الحكم بأن هذا التدريج يفيدها فائدة جوهرية، وأن مــا يصيبه البعض منها يهيئــة للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقى من أبناء أمته؟.

واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها!؟ وكيف بذرت بذروها؟ وكيف نبتت واستوت على ســوقها وأينعت وأثمرت؟ وبأى ماء سقيت، وبأى تربة غذيت؟ ولا وقــوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشــئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فإنمــا يكــون ظاهرًا من القول لا بناء علــى الحقيقة، فهل مع هذا يصيــب الظن بأن مفاجاة بعض الأفراد بها، وســوقها إلى أذهانهم

المشـحونه بغيرهـا، يقوم مـن أفكارهم، ويعدل مـن أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم- وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسـخ في نفوسهم على عهـد الصبا، وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم - يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فسادًا.

«مـاذا يكون من أولئك الناشـئين في علوم لـم تكن ينابيعها من صدورهـم، ولـو صدقوا في خدمة أوطانهم؟ يكـون منهم ما تعطيه حالهـم، يؤدون مـا تعلموه كما سـمعوه، لا يراعون فيه النسـبة بينه وبين مشـارب الأمة وطباعها، ومـا مرنت عليه من عاداتها، فيسـتعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على مابلغهم هو الكمال لكل نفـس، والحياة لـكل روح، فيرومون من الصغيـر مالا يرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه، ولا مفكرين في اسـتعداد من يعرض عليهم، وهل يكـون له من طباعهم مكان يحمـد؟ أو يزيدها على ما بها أضعافا؟ وما هذا إلا لكونهم ليسـوا أربابها وإنما هم لها نقلة وحملة.

«فهـؤلا الصادقون إلا مـن وفق الله منهم بعنايـة الإلهية يكون مثلهـم كمثل والدة حنـون يلذ لها غذاء، فتفيـض منه على ولدها وهو رضيع ليسـاهمها في اللذة، وسنه سـن اللبان لا يقبل سواه،

فيسـرع إليه المـرض، وينتهى به إلى التلـف، فتكون منزلتم من الأمة منزلة الآلة المحللة يتشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها، وما قصدوا إلا خيرا إن كانوا مخلصين، وبوسـعون بذلك الخصاص[1] حتى تعود أبوابـا، ويباعدون ما بين الضفاف، حتى‌تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفتاء والاضمحلال وبئس المصير.

«شـيد العثمانيـون والمصريون عـددًا من المـدراس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلـى البلاد الغربية ليحملوا إليهم مـا يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسـمونه تمدنا، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشـأ فيها على نظام الطبيعة، وسـير الاجتماع الإنسـانى، هلى انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهمٍ من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسـن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسـك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هلى نجـوا بها من ورطات ما يلجئهم إليـه الأجانب بتصرفاتهم؟ هلى أحكموا الحصون وسـدوا الثغور؟ هلى نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف

(١) الخصاص: الخلل أو الخرق فى الباب.

فى الأفكار حدًّا يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنيـــة ، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبهـــا وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وإن بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم؟

«نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنســية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بســمات أخرى على حسب ما يختارون ، ووقفوا عند هذا الحد ، ومنهـــم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصـــل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وســائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منهـــا فـــى الممالك الأجنبيـــة ، وعدوها من مفاخرهـــم ، وعرضوها معـــرض المباهاة ، فنفوا بذلك ثروتهـــم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولايحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائـــع من قومهم ، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تســتدعيه تلك العلوم الجديد والكماليات الجديدة ، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطراز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنـــع الجديد ، وثروتهم لا تســع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشـــوه وجهها ، ويحط بشـــأنها ، ومـــا كان هـــذا إلا لأن تلك العلـــوم وضعت فيهم على غير أساســـها وفجأتهم قبل أوانها.

«علمتنـا التجـارب ونطقـت مواضى الحـوادث بـأن المقلدين مـن كل أمه المنتحليـن أطوار غيرها، يكونون فيهـا منافذ وكوى لتطـرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوسـاوس ومخازن الدسـائس، بل يكونـون بما أفعمـت أفئدتهم مـن تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شـؤما على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرون أمرهم، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقـى فى بعض رجال الأمه بقية الشـمم، أو نزوع إلى معالى الهمم، أنصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يمحى أثر الشـهامة، وتخمـد حـرارة الغيرة، ويصيـر أولئك المقلـدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السـبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سـلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلًا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

«أقـول ولا أخشـى لومًا: لو كان فى البـلاد الأفغانية عدد قليل من تلـك الطلائع عندنا تغلب على بعـض أراضيها الإنجليز – لما بارحوها أبد الآبدين،فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليسـت إلا توطيد المسـالك، والركون إلى قوة مقلديهم واسـتقبال مشـارق فنونهم، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التى قـد يصون بها النـاس حقوقهم، ويحفظون بها اسـتقلالهم. ولهـذا لو طـرق الأجانب أرضا لأبيـة أمة ترى هـؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسـهم لخدمتهم بعد الاستبشـار

بقدومهم، ويكونون بطانة لهـم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

* * *

«فما الحيلة وما الوسـيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسـوء اسـتعمالها رأينا مـا رأينا من آثارهـا، والوقت ضيق والخطب شـديد؟ أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشـايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج الطبـاع الجامـدة، وتحرك الأفكار الخامـدة؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسـادها، وتحشـرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسـيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشـرقى والغربى والجنوبى والشـمالى، الـرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشـمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات، وللأهواء تحكم، وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشـفقون على الأمة والزمن قصيـر؟ ماذا يحاولون والأخطـار محدقة بهـم بأى سـبب يتمكنون ورسـل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أسـتلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسـباب، ووسيلة تحيط بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشـأة الأمة التى خملت بعد النباهة،

وضعفت بعد القوة، واسـترقت بعد السيادة، وخيمت بعد المنعة، وتطلب أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلـل، فقد يكون مـا جمع كلمتها، وانهض همـم آحادها، ولحم مـا وبين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشـرف منها على رءوس الأم، وتسوسـهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتهـا، وإنما هو دين قويـم الأصول، محكم القواعد، شـامل لأنـواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مـزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسـائس، منور للعقول بإشـراق الحق من مطالـع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية. وحافظ وجودها. وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

«فإن كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وعنها صدرت. فما تراه مـن عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًّا. وحدوث بدع ليسـت منها فى شئ، أقامها المعتقـدون مقام الأصـول الثابتة، وأعرضوا عما يرشـد إليه الدين وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له، حتى لم يبقى منه إلا أسـماء تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمه وبين الحق الذى نشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بإمـكان على ما كان فى بدايته، وإرشـاد العامـة بمواعظة الوافية بتطهيـر القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيـران الغيرة، وجمع

الكلمة، وبيع الأرواح لشـرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياهـا نور خفي من محبته، فلا يحتـاج القائم بإحياء الأمة إلى نفخة واحدة يسرى نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشـئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريـق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهـم الحقة نصب أعينها، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسـيرهم منتهى الكمال الإنساني...

ومن طلب إصلاح أمة شـأنها ما ذكرنا بوسـيلة سوى هذه، فقد ركب بها شـططا، وجعـل النهايـة بداية، وانعكسـت التربية، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

«هـل تعجب أيها القارئ من قولـي إن الأصول الدينية الحقة، المبـرأة عن محدثات البدع، تنشـئ للأمم قـوة الاتحاد، وائتلاف الشـمل وتفضيل الشـرف على لـذة الحياة، وتبعثهـا على اقتناء الفضائل وتوسـيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدينة!؟ إن عجبت فإن عجبي من عجبك أشد!!

هل نسـيت تاريخ الأمة العربية وما كانت علية قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات، واتيان الدنايا والمنكرات، حتى إذا جاءها الديـن فوحدها وقواها وهذبهـا، ونور عقولها، وقـوم أخلاقها، وسـدد أحكامها، فسـادت على العالم، وساسـت من تولته بسياسة

العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس، وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شئ من هذا، وكل أمه سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها.

«وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك، وافتتاح الأقطار، وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم، وارتفاع النفوس عن الدنايا، وبعد الغايات، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.»

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان (مقاصد إنجليزية فى مصر):

«فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة إنجليزية بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة

المصريــة وفروعهــا فى حاجة إلى إصلاح حقيقــى ولن يقوم بـه إلا رجال الإنجليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكنته من السـلطة على البلاد المصرية وضمها إلى ممالكها الشرقية، وما كان ذلـك خافيـا على أحـد وإن كان بعض المصرييـن غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم.

«ومـا تطلبة الجرائد من طرد العسـاكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسـوخ القدم، ثم تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن الأهالى يفرحون منه، مع أن أول ثورة عسـكرية سـر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون[1] إنما كان منشأها العزم على تقليل عددالعساكر وإقفال المدرسة العسـكرية، فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج».

تخاذل الشرقيين والدعوة إلى الوحدة بينهم

وكتبت فى عدد ١٠ أبريل سنة ١٨٨٧ (١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠١هـ) تحت عنـوان(واعتصموا بحبـل الله جميعًا ولا تفرقوا)

(١) تقصـد الوزارة المختلطة التى كان يرأسـها نوبار سـنة ١٨٧٨م وكان فيها وزيران أجنبيان. أحدهما إنجليزى وهو ريفرس ويلسن Revers Wilsod، والثانى فرنسـى، وهـو دى بلينيير De Blignieres وقد سـمتها (العـروة الوثقى) وزارة ويلسـن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة. للتحقير من شـأن رئيسـها نوبار وتقصد بالثورة العسكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩م وأدت إلى إسقاطها.

مقال أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم وإغفالهم شئون إخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم اكتراثهم لما يحل بهم ففقدوا التضامن بينهم ولهم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والسياسة فى مختلف الأقطار، وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الإسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفًا لمطامع أعدائها، ودعت العلماء فى جميع الأقطار الإسلامية إلى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات بينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم.

«إن للمسلمين سترة فى دينهم، وقوة فى إيمانهم، وثباتًا على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الإيمان بالله وما جاء به نبييهم ﷺ كفالة لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينة أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم، حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالمًا كان أول جاهلاً ممن وسم بسمة الإسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل إليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبة من الأضطراب، ودمه

من الغليان، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية مارأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

«المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه. وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صئب واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيرة، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه، وهذه قواعد مثبته فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

«المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل بلوخستان كانوا

يــرون حركات الإنجليز فى أفغانســتان على مواقــع أنظارهم،ولا يجيش لهم جــأش ولا تكون لهم نعرة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشــهدون تداخل الإنجليز فى بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململــون، وأن جنود الإنجليز تضــرب فى الأرض المصرية ذهابًا وإيابًــا تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة فى نفوس إخوانهم المشــرقين على مجارى دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشــاهدها بين أيديهــم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

«تمســك المســلمون بتلك العقائد وإحساســهم بداعية الحق فى نفــوس مع هــذه الحالة التى هم عليها مما يقضــى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملًا عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفســية وإن كانت هــى الباعثة على الأعمال وعــن حكمها تصدر بتقديــر العزيز العليم، لكن الأعمــال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفــس وتطبع الأنفس عليهــا حتى يصير ما يعبــر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها.

«نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ماينعكس إلى مزايا عقلة من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شــهود يحدث فكــرًا، وكل فكر يكون له أثر فــى داعية، وعن كل داعية ينشــأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل

والأنفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح فى الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد.

«إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتمام لولا مـا تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريـب، وغضاضة القلب لما يصيبة من ضيم أو نكبة جاريا مجارى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشـتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيًّا. فلو أهملت صلة النسـب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحيـاة فى وقت من الأوقات إلى مـا يمكن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسـب من يظاهره فى غير نسـبة أو ألجأته ضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسـبية، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجـرى المحفوظات من الروايـات والمنقولات، وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض، إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه

ويعـــود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشـــكلاً من أشـــكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعد فى الصورة العلميـة له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

«بعـد تدبر هــذه الأصول البينة، والنظر فيـهـا بعين الحكمة، يظهر لك الســبب فى سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتـهم فى دينهـــم، والعلة فى تباطؤهم عن نصــرة إخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم. فإنه لم يبق من جامعة بين المســلمين فى الأغلب إلا العقيـدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضا هجرا غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالــم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلاً عمن يبعد عنهم، والعالم الهندى فى غفلة عن شــئون العالم الأفغانى، وهكذا بــل العلماء من أهل قطر واحــد لا ارتباط بينهم، ولاصلة تجمعهم إلا ما يكــون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهــم وآخر، أما هيئتهــم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنســاب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسة.

«كما كانــت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والســلاطين من المســلمين، أليس بعجيب أن لا تكون ســفارة للعثمانين فــى مراكش ولا لمراكش عنــد العثمانين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق؟»

«هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتـــى صــح أن يقال لا علاقة بيـــن قوم منهم وقــوم، ولا بلد وبلد. إلا طفيف من الإحســـاس بأن يعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفــون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موســم الحجيج العام، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأســـف وانقباض الصدر إذا شـــعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته كانت الملكة كجســـم عظيم قـــوى البنية صحيح المزاج، فنـــزل به من العوارض مـــا أضعف الالتئام بيـــن أجزائه. فتداعت للتناثر والانحلال. وكاد كل جـــزء يكون على حدة وتضحمل هيئة الجسم.

«بدأ هـــذا الانحلال والضعـــف فى روابط الملة الإســـلامية عند انفصـــال الرتبـــة العلمية عـــن رتبة الخلافـــة وقتما قنـــع الخلفاء العباســـيون باســـم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشـــدون ﭫ كثرت بذلك المذاهب وتشـــعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يســـبق له مثيل فى ديـــن من الأديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقســـمت إلى أقســـام، خلافة عباســـية فى بغداد، وفاطميـــة فى مصر والمغرب، وأموية فى أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة

الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى ما يليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار ما فى العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأقارب، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

«وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم. ومدارسهم حتى

يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى مقعد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل».

«إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان

لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويعترفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر. ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير».

الجيش المصرى بقيادة الإنجليز
والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤م):

«دخل الإنجليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندا جديدا فى عدد قليل، واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد[1]. فهموا بذلك مرارا

(١) تأييد لما ذكرته (العودة الوثقى) نقول: إن أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضابط من الإنجليز، وقد بادر الإنجليز منذ الساعة الأولى إلى إلغاء الجيش الوطنى، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

بإيعاز منهم مرسوماً بإلغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية، وكان التعجيل بهذا الإجراء الخطير ذريعة للإنجليزا لتوسيغ بقاء جنودها فى مصر

مع العزم على اسـتبداله بآخر من أبناء الوطن، وكلما صدتهم بعض الموانع السياسـية عن هممهم كتموا أمرهم زمنا ثم عادوا للإشـارة إليه تعللا بما ينسـبونه إلى بعض العسـاكر، وهو من دسائسهم، وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسـوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول.

«فـى هذه الأيام رغبوا إلى الدول في عقد مؤتمر للنظر في قانون التصفية وتحويره، ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا في لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوربا بضرورة طـرد الجند الوطني رعاية للاقتصـاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية[1]».

بحجـة المحافظـة على النظام فيها وعندمـا أوفدت إنجلترا اللورد دفرين سـفيرها بالآسـتانة إلـى مصر وعهـدت إليه وضع تقرير عـن الحالة فيها. رفـع تقريره في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣م إلى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب إلى أن مصر ليسـت فى حاجة إلى قوة عسـكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل!) وإن مهمـة الجيش المصرى يجب أن تنحصر في إقرار الأمن والنظام داخل البـلاد، وأوحى بأن لا يتجاوز عدده سـتة آلاف جندى، علـى أن يتولى قيادته قائد إنجليـزى يعاونه لفيف من الضباط الإنجليز، وبذلك وضـع دفرين في تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت إنجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال.

(١) المؤتمر الذى تشـير إليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت إنجلترا الدول في ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤م إلى عقده للمفاوضة في شئون مصر المالية والنظر في تعديل قانون التصفية، وقد عقد بلندن في يونيو سـنة ١٨٨٤م، ولم يكن عقده لصالح مصـر، بل كان مظهراً للحماية المقنعـة التى اعتزمت فرضها عليها. لأن عقد مؤتمر

«إن الإنجليز ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقــلاب العظيم الذى حصل فى مصــر[1] وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهــم فــى ذاك الانقلاب ودافعــوا عن الدائنيــن وزعموا من المحال تنقيص شيء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفــر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين. واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبســطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مســاعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية، أليســت البلاد المصرية كســائر بلاد العالــم تحتاج إلى حاميــة تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات، إن فى تلك القســوة الأولى والمرحمة الثانية كسرا عظيما.

«للإنجليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون ســلطتهم عليها من ضروريات شــوكتهم فــى الهند، وفى خلدهــم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عســكرية عظيمة فإنهم يخالفونهم فيما يريــدون ببلادهم، فضيقوا على الماليــة فى تلك الأوقات، وألجئوا الحكومــة لتمزيق قوتها العســكرية ليحصل الضعــف فى القوتين الماليــة والجنديــة فتمهد لهــم طريق ما طمحوا إليــه، وكان هذا

للنظر فى شــئون مصر المالية دون السياسة معناه إطلاق يد الإنجليز فى مصر على أن هــذا المؤتمر قــد انفض على غير جدوى إذ لم يتفق المؤتمرون على طريقة حالة مصر المالية.

(١) يقصد على الراجح خلع الخديو إسماعيل.

التدبير سببا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنا طويلا، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصًا من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوربا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية».

«ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية، فلابد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنجليز، وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة دمر[1] الإنجليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين

(١) دمر عليه: دخل بدون إذن أو هجم هجوم الشر.

للقتـــال واضطر كل نـــواب أوراجا إلى النقود والجنـــود ليدافع بها عـــن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنجليز بســـعة الصدر وانبســـاط النفس ومدوا أيديهم لمســـاعدة كل من المتنازعين وبســـطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالأخرى على ســـيف الغلب، بدءوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شـــأن جيوشـــهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبـــه إلا بالجنود الإنجليزية فأقبل الإنجليز على أولئك الســـذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمـــة تحت قيادة قـــواد من الإنجليز ويكون بعـــض الجنود من الهندييـــن وبعضها من البريطانيين، ومـــا على الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها، ثم خلبوا عقـــول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم وليـــن مقالهم حتـــى أرضوهم بأن يكون على القـــرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنجليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية، عنها ففرقة وأخرى سموها (عمرية) ســـموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة الشيعة والوثنيين».

«ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثورة عن أداء النفقات العســـكرية فتح الإنجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى

القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة. وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضى زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء ،وإنما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضروات[1] الأراضى وفيحائه، وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعا حصينة وحصونا منيعة كما يفعلون ذلك فى ثكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابا من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون أقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يذكون نار العدواة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه، وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة

(١) الأرض الطيبة. ويقال هم غضراء من العيش أى فى خصب وخير.

الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدى فلا يستطيع أحدا حراكا ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطه أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفى الكل هم الرابحون، وهذا سيرهم فى الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا، ما فاجئوا أحدا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهليها ولا بما تطرف به أجفانهم».

«أولئك الإنجليز باقعة[1] العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة فى مصر أن طلب منهم جندًا إنجيلزيًا يكون خادما له وحافظا لملكه، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكما خلفا لمن

(١) الباقعة: الداهية.

لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا، هذا سـر انقلاب الإنجليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سـيرته بعد الثناء على حسـن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة».

«أما المؤتمر فالداعى إليـه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان فى الأحقاب الحالية مشـوه الوجه منكر الصورة يعرفـه الذكى والغبى، بل مـن أراد عدوانا فلابد أن يحفه بمواكب مـن الأدلة وخفال[1] مـن البراهين وهو ما يعبـرون عنه بالحقوق والمصالـح، ومـا أصعب الوقوف علـى كنه العـدوان وهو فى هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

«يريـد الإنجليز عقد المؤتمر ويرغبـون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكلفوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمـان لترخص لهم الدول الإقامة فى وادى النيل إلى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السـلم مظلاً بلاد أوربا فإذا حدث حادث حرب فى الدول الأوربية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم، هذا سـر شـفقة الإنجليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية».

---

(١) الخفال: الجمع الكبير.

«هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا، كلا، فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها، وليست دولة (أوستريا) بأقرب إلى المصائب المصرية من ألمانيا، على أن كلا من الدولتين ليس في استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئًا من مصالحها، فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الإضرار بدولة الإنجليز، أما إيطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقيا بمساعدة إنجلترا».

سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر ونذكر طرفا مما يعانيه المواطنون نتيجة للسياسة الإنجليزية قالت:

كتب إلينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال:

إن مأمورى الإنجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنجليزية إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة، لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنجليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصا وأن روح الحمية والغيرة الدينية

والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط الإنجليز فى ديارهم، وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة، وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنجليز فى رغبتهم، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره، فإن وجد بينهم شخص يتخذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى أفناد[1] ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به.

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى، فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظلم.

إلى أن قال الصديق الفاضل: أما الفلاحون فأحوالهم سيئة: ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع

---

(١) الأفناد: الطوائف.

ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين في فناء ديوان الحقانية[1] على خراب بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها وهذا يتفق عليه بمبيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصا من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شيء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له إنه يحاكم فى محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الإنجليزية).

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنجليزى فى إدرات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين.

---

(١) يريد المحكمة المختلطة.

أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد نقص بناؤه واقتلع أساسه واختزن الإنجليز نقاضه في خزائن الآثار القديمة، فقويت عصابات اللصوص، وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسآمة من رواية أخبار السوء كل يوم، إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم، واحدا وأربعين رجلاً فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلا على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير.

رئيس وزراء مصر
يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت في عدد ٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م) النبأ الآتي:

«إلى اللورد غرانفيل[١] أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوربا مدة غيبة السير بارننج[٢] فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

(٢) أفلين بارننج Evelin Barning المعتمد البريطاني في مصر الذى صار اللورد كرومر.

أو شريف باشا ، هذا كله والإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سـيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم وليس يدرى ما الغرض من السـيادة والحماية سوى التصرف فى الإدارة أو التحكم فـى أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سـفر إلا بإذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة؟».

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية فى عدد ١٠شعبان سنة ١٣٠١هـ (٥ يونيه سـنة ١٨٨٤م) تحت عنـوان «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضه بعضا» تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشـرقية وتدعوها إلى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت:

«أمـران خطيران تحمل عليهما الضرورة تـارة، ويهدى إليهما الدين تـارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسـة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويسـتصحبه، بل يسـتلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسـمى أودع فى ضآضئـه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشـأه خلقا سويا، ثم اسـتبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

«كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلابد أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب في الأمم كالتغذى في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها، إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم - إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها، وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم إلا عند لهوهم بما في أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلا إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً، وعذابًا وبيلاً، ثم فناء سرمديًا.

«الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم،

وبمـــا تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألـــون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحســـاس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته، ليجعل جزءًا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشـــرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشـــر والغيلة، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقـــل من همه بالنظر فـــى أحواله الخاصة، ثم لا يكـــون نظرًا عقيمًا حائـــرًا بين جدران المخيلة، دائرًا على أطراف الألســـنة، بل يكون اســـتبصارًا تتبعـــه عزيمة يصدر عنهـــا عمل يثابر على اســـتكماله بما يمكن من الســـعة، ومـــا تحتمله القدرة على نحـــو ما يكون فى اســـتحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الاعتبار والشئون الخاصة فـــى المنزلة الثانيـــة منهما، ولا تقف فيما تجـــد عند جلب المصالح ودرء المفاســـد لأوقاتهـــا الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها ســـبيلاً من التفكير، ويخترطون ســـيوفًا من الهمة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة، ويجمعوا ذلـــك للأمة، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها، كما يســـعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشـــته، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده، وأن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون. ثم تتلوه ســـائر الأدوار، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة.

«إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيناه، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة هممًا تعلو، وشيمًا تسمو، واحترامًا يقود، وعزمًا يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب، فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقًا من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا فى إعداد وسائل الفوز والظفر.

«هذان الأمران: الوفاق والغلب، عمادان قويان، وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، جاء فى قول صاحب الشرع أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر، وجاء فى نهيه «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونو عباد الله إخوانًا» وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

«هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٠] وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين

عند التخالف، ثم شدد في وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغي فقال ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحجرات: آية ٩] وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٥] وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرًا.

«وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة، وأخبر الصادق ﷺ أن «يد الله مع الجماعة» وكفى بالقدرة الإلهية عونًا إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الإسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفًا عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين. وعد جحود مروقًا من الدين، وانسلاخًا عن الإيمان. ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله ﷺ «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت». (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى

حلـف الفضول لأنهم تحالفوا علـى أن لا يدعو عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه). فهو من حلف الجاهلة، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه.

هـذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفـاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسـلمين، بل بينهم وبـين غيرهم ممن رضـى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

«وأما السـعى لإعلاء كلمة الحق وبسـطة الملك وعموم السيادة، فلا تجد آية من آيات القرآن الشـريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسـلمين بالجد فيـه، حاظرة عليهـم أن يتوانوا فى أداء الفـروض منـه، ومن الأوامر الشـرعية أن لا يدع المسـلمون تنمية ملتهـم، حتى لا تكـون فتنة ويكـون الدين كله لله، وفى السـنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فـى مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

«هـل يمكن لنا ونحـن على ما نرى من الاختـلاف والركون إلى الضيـم أن ندعى القيام بفروض ديننا؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلـب فرضين لذاتهما أفلا يكونـان مما لا يتم الواجب إلا به؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشـريعة كما قدمنا؟ هل لنا

عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين؟ وأيسر شيء علينا إقامتهما وعديدنا مئتا مليون أو يزيد؟ هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

«كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقًا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم وأيدينا على نواصيهم؟

إن لأبناء الأمة الإسلامية يقينًا بما جاء به شرعهم، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين؟ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: الآيتان ٢ - ٣].

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الإيمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون

وقد كانـت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسـكنة، وأن يسـتبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شـريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسـوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

«لا. لا. إن المخلصـين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [سورة محمد: آية ٧] لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟

«المبصر بنور الله يعلم أنه لا سـبيل لنصـر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسـة، وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدى حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعى مع هذا أننـا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

«إن الميـل للوحـدة والتطلـع للسـيادة وصدق الرغبـة في حفظ حوزة الإسـلام كل هـذه صفات كامنة في نفوس المسـلمين قاطبة، ولكـن دهاهم بعض ما أشـرنا إليه في أعـداد ماضية، فألهاهم عما يوحـى به الدين في قلوبهم وأذهلهـم أزمانًا عن سماع صوت الحق يناديهـم من بين جوانحهم، فسـهوا وما غـووا، وزلوا وما ضلوا،

ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالى المظلمة، كل يطلب عونًا وهو معه، ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفى تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم، فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها عواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية، فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب، وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقى، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدًّا يوشك أن يكون فعلاً. وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ويهيئ لهم فوزًا ونجاحًا بعون الله الذى ما خاف قاصده، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب».

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت فى عدد ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) مقالة بعنوان ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [سور الحج: آية ٤٦].

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانها واستقلالها كانت هى الظالمة لنفسها إذ كانت تثق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار، وأن القوة والعدل هما أساس الملك. فقالت:

«أهلك الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين، فكم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[سورة الكهف: آية ٤٩]. وليست أفعاله جزافا، ولا يصدر عنه شىء عبثا، أمر الله عباده بالسير فى الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ١١] ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنزل يحكم حكمًا لا يخالفه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر فى شىء، إلا وكانت هى الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة،

وانحرفت عن شـرائعه الحقة، وحرفت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

«كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة.

«إن تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بنى الإنسان فى هيئة اجتماعهم، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

«ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة، والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببًا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعيًا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيئًا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم. فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابًا بمرض قلب، وعمى البصيرة،

أدرك سر أمر الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣] وسر نهيه في قوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣] وقوله ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[1] [سورة الأنفال: آية ٤٦].

«إن الله تعالى جعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به، سببًا في اختلال الأمن وفساد الحال، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية، ولا تصل به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان مليكًا ضاع ملكه، أو أميرًا بطل أمره، والحوادث شاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة: آية ١] وقوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٨] وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

---

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

«لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحًا في الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شىء فاته سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالغ فى الترف، وبطر فيما أنعم عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معا، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته، أو يواطنه فى مدينته.

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء[1]، وأن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة القصص: آية ٥٨] .. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٦٤ – ٦٥] .. ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة غافر: آية ٧٥] هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب

(١) الأكمه: من يفقد نور عينيه منذ ولادته. والأنثى كمهاء.

الله عليهم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة طه: آية ١٢٤].

«ما أوتى الإنسان من العلم إلا قليلا. لا يمكن الإنسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضارة فيتقنها، خَلق الإنسان ضعيفًا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣] خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

«هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمته، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع. لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقارًا إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليمًا وإرشادًا فقال ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] وقال فيما امتدح به المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: آية ٣٨].

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟ وأى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم؟ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٦٨].

«إن وزاع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه، وليستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم، وثمار كدهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا فى إعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوى شوكتهم، بأى وجه كان، ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار.

«هذا مما يفهمه الأبلة والحكيم، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم. وهو سر الإفصاح والإبهام فى قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: آية ٦٠] أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان. وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ [سورة النساء: آية ٧٨].

«إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك وقوة

السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفى نفوس الأمة من العلل. هذا مما تحكم به بداهة العقل، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض، وثبت نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [سورة النحل: آية ٩٠] كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليهم الأوامر والنواهى فى هذا الباب، العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[سورة البقرة: آية ٢٦٩] وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العليا، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

«من سار فى الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجده إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبى، أو استبداد فى الرأى، واستنكاف عن المشورة، وإهمال فى إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشياء فى غير مواضعها، فيكون جور فى الحكم، واختلال فى

النظام، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

«لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا، وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [سورة الأنفال: آية ٥٣].

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، وليستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [سورة الزمر: آية ٢٦].

«على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [سورة النور: آية ٥٥]. هذه وظيفة العلماء الراسخين. وما هم بقليل بين المسلمين. ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم. ووكل إلى ذمتهم. وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الإسلام. وأوصياء الله على المؤمنين. أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمن بإرشادهم».

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت فى عدد ٢٢ شوال سنة ١٣٠١هـ (١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤م النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا).

«يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه إلى أنفسهم. وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويمدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدًا بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت

محمـد على من تصرفه، فإن لم يكن هـذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقـاوم الإنجليز بمـا فى جهده ويموت شـهيدًا فى سـبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأتنا الأخبار من القطر المصرى.

إذا تمادى توفيق باشـا فى سـيره الملتوى فعلـى المصريين أن لا يقعـوا صيدًا فى يد الإنجليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم، وإلا فما الله بغافل عنهم.

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد:

«كثـيرًا ما أتينا فى جريدتنا على بيان الإنجليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه وذكرنا أن سـيرة الحكومة الإنجليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطـار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبـوا على من يريدون، وقلنا إن الإنجليـز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سـفك دمـاء غزيرة ولا صرف أمـوال وافرة وإنما ملكوا ما ملكوا بسـلاح الحيلة، يدخلون فى كل بلد أسودًا ضاربة فى جلود ضأن ثاغبة، يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين وآمنه ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام، نادينا مـرارًا بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل فى ملك للشـرقيين ورأوا أن القائـم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطئ سـيرهم إلى ما يقصدون بادروا إلى التشـويش عليه، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيتـه ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا أحـد أعضاء العائلة المالكة

بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر. أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله إما ضعيفًا أحمق وإما صبيًّا لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه - ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل.

إلى أن قالت:

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعًا فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك)[1] . كان هذا الرجل البارع حاكمًا فى الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب فى كؤوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتا وقلب عروشا وكم خفض رفيعًا وأذل عزيزًا وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع المرحمة على الهنديين ويقول إننى أول إنجليزى تهمه رفاهة أهل الهند وأننى وحيد بين الإنجليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم

(١) اللورد نيوثبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته إنجلترا إلى مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٤م ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف «النصائح» التى ترى بذلها للحكومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن. وقد أكرم الخديو توفيق وفادته. وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره.

بالصلاح والنجاح وإننى أستغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يوصل بهم إلى الفلاح، وينادى فى الهنديين بقوله: وأأسفاه إنكم إلى اليوم مـا عرفتمونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من إرادة الخير لكم هذا هـو الكاهن الحاذق فى وعظه «دونه فى النفـاق عبد الله بن أبى بن سـلول رأس المنافقين فى الإسلام» إن الحكومة الإنجليزية عرفت قـدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكـر وخبرته بأحوال الأمراء الشـرقيين وسـعة علمه بكيفيات التصرف فـى عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشـعرون - واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسـلمين. لأجل هذا قررت أن تبعثه على مصر وعزمت على إرسـاله إليها مفوضًا من قبلها يفعل ما يشاء، ولكن لا نظـن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تسـنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسـهم عـار الذل ووصمة الضيم فلا يكون إلا باسـتعمال توفيق باشـا آلة فـى جميع أعماله يسـتخدمه لإدخـال مصر فى ملـك الحكومة الإنجليزيـة، يلقنه الأوامر السـامية ويلهمه الإرادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصرييـن لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السـلطة فيها للحكومة الإنجليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصرييـن للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشـا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيرًا لم يبلغ الحلم واسـتند فى ذلك إلى الفرمانات السـلطانية «يحترمونها إذا

وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديوانًا له، نوبار باشا لا يقصر فــي هذا العمل ولا يألو جهدًا في إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشــا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة فــي القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقــي من عمره، ويكون في أمان من العزل تحت ظل الحكومة الإنجليزية.

إلى أن قالت:

هذا هــو نور ثبروك الــذى تريد حكومة إنكلتــرا أن ترمى به مصــر، وهذا هو الإصلاح الذى يقصد إجراءه فيها، لكن رجاءنا في المســلمين وأملنا فى المصريين وقــوة إيماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكســة الحكومة الإنجليزية، كل هذا يبشــرنا بخيبة هذا الغادر في قصده. والله لا يهدى كيد الخائنين.

وفى عدد ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) كلمة جاء فيها تحت عنوان:

تعظيم توفيق باشا نور ثبروك

«ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نور ثبروك إليها. وحصلت الملاقاة الرســمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رقيمًا من اللورد (غرانفيل) يــؤذن أن اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الإنجليزيــة في القطــر المصرى ويطلب مــن الحكومة المصرية أن

تســاعده فى حل المشاكل الحالية خصوصًا المسائل المالية، فأظهر توفيق باشــا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه».

«يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد (نورثبروك) وإن لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له ســابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده، هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هذا الخديو الشــاب من مراضاة هذا المخادع وماذا يصيبه من سهامٍ حيله؟ بينّا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفًا من أعماله فى الهند، ونذكر الآن عملاً آخر منها:

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية من مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم لاهور و(بتيالة) فادعى على مهرجتها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وســجنه فى (بكســو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالســم، وكان هذا الملك المخلوع ابن «راندهيرسنك» ونصب بدلــه ولدًا صغيرًا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنجليزية.

«كانت الحكومة الإنجليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيــرة من بقايا أملاكهــم للصيد، فكان أولئك المســاكين يســلون أنفســهم على ضياع ممالكهم بصرف بعــض الزمان فيها، فلمــا جاء اللورد (نورثبروك) حاكما فــى الهند رآها كثيرة عليهم فنزعهــا من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة، هذا اللورد

هو الذى طلب (سـميع الله خان) الدهـرى ليكون معينًا له فى مصر على إرضـاء المصريين بحكومة الإنجليز، وهو الذى أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب المصرية، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة، ولكن العرب قتلوا رسـوله وشنق به أشـخاص فى مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه، صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال».

سنة الله فى الأمم

ونشـرت فى عدد ٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ (٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) مقالـة تحت عنـوان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سـورة الرعد: آية ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٥٣].

«تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون».

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسـله؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله!!

هـل أنزل الآيـات البينات لغوًا وعبثًا؟ هل افترت عليه رسـله كذبًـا؟ هل اختلقـوا عليه إفكًا؟ هـل خاطب الله عبيـده برموز لا

يفهمونها وإشـارات لا يدركونها؟ هـل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟ نستغفر الله!

أليـس قد أنزل القرآن عربيًا غير ذى عوج، وفصل فيه كل أمر، وأودعه تبيانًا لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علـوًّا كبيرًا، هو الصادق فى وعده ووعيده، ما اتخذ رسـولاً كذابًا، ولا أتى شـيئًا عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [سورة فصلت: آية ٤٢].

«يقـول الله ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سـورة الأنبيـاء: آية ١٠٥]، ويقول ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سـورة المنافقون: آية ٨]، ويقول ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الروم: آية ٤٧]، ويقول ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الفتح: آية ٢٨].

هـذا ما وعد الله فى محكم الآيات ممـا لا يقبل تأويلاً، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السـبيل، ورام تحريف الكلام عـن مواضعه، هذا عهده إلى تلـك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهـده، وعدها بالنصر والعـزة وعلو الكلمة، ومهد لها سـبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل الله لمجدها أمدًا، ولا لعزتها حدًّا.

«هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير فى سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهينون بها. وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ، ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها ما لم

تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدًا فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

«هـذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهـاء مائتى مليون من النفوس، وأراضيهـا آخذة من المحيط الأتلانتيكى إلى أحشـاء بلاد الصين، تربـة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شـعبًا، ويتقاسـمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة، ويمسـون فى كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.

«هـذه هى الأمة التى كانـت الدول العظام يؤديـن لها الجزية عـن يد وهن صاغرات، اسـتبقاء لحياتهن، وملوكها فى هذه الأيام يـرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، يا للمصيبة ويا للرزية!!

«أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل».

ما سـبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسـىء الظن بالعهود الإلهية؟ معاذ الله! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله!

هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا؟ حاشـاه سبحانه لا كان شىء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا

عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننًا متبعة ثم قال ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [سورة الأحزاب: آية ٦٢].

«أرشدنا الله سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما يقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمتهم، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

«هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها، سنة ثابتة

لا تختلـف باختلاف الأمـم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسـنته تعالى فى الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال.

«علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسـالك سـيرنا، لنعلم هل نحن على سـيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسـنا، وخالف فينا حكمه، وبدل فى أمرنا سـنته؟ حاشـاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشـلنا وتنازعنـا فى الأمـر وعصيناه من بعد ما أدى أسـلافنا ما يحبون، وأعجبتنـا كثرتنا فلم تغن عنا شـيئًا، فبدل عزنا بالذل، وسـمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نبذنـا أوامر الله ظهريـا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسـوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه.

كيف لا نلوم أنفسـنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى فى أحد منا حراكا؟

«هذا العدد الوافر، والسـواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسـهم شـيئا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود يعيش ألف سـنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقـت كلمتنا شـرقًا وغربًا، وكاد يقطع مـا بيننا، لا يحن أخ لأخيـه، ولا يهتم جار بشـأن جاره، ولا يرقـب أحدنا فى الآخر

إلًّا ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

«أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة، ولا يمس سواد القلب؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لا يبتلى الله ما فى صدورهم، ولا يمحص ما فى قلوبهم؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بحال، ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنًا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟

«إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيمانًا وثباتًا، ويقولون فى إقدامهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وكيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه؟ ممتع بالسعادة الأبدية فى نعمة من الله ورضوان؟ كيف يخاف مؤمن من غير الله، والله يقول ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٧٥].

«فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة، وليطبق بين

صفاتــه وبين ما وصــف الله به المؤمنين، ومــا جعله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

يا ســبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحــدة، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، وإجماع الأمة ســلفًا وخلفًا، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون بكل أرض، متمكنــون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نعرة، ولا تســتفزهم للدفاع عنه حمية؟ ألا يا أهل القرآن لســتم على شــىء حتى تقيموا القــرآن، وتعملوا بما فيه مــن الأوامر والنواهــى، وتتخذوه إمامًا لكم فى جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم فى العمل كما كان ســلفكم الصالح.

ألا يــا أهل القرآن هذا كتابكــم فاقرءوا منه ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [سورة محمد: آية ٢٠].

ألا تعلمــون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت فى وصف من لا إيمان لهم. هل يســر مؤمنــا أن يتناوله هذا الوصف المشــار إليه بالآية الكريمــة، أو غَرَّ كثير مــن المدعين للإيمان ما زين لهم من ســوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [سورة محمد: آية ٢٤].

«أقول ولا أخشى نكيرًا: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان ،لا يراعى فى ذلك عذرًا ولا تعلة، وكل اعتذار في العقود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

وها نحن نرى الإنجليز دخلـوا أرض مصر وأخذوا يجولون فى أطرافها ويمهدون السـبل لامتلاكها، ومع ذلـك لا نرى من أهلها إقدامًا فعليا لمصادمة القوة الإنجليزية، مع أن كل واحد منهم يزعم نفسـه فى أعلى درجات الإيمان، ويزيـد المتعجب عجبًا أن مصر يسـكنها من المسلمين أقوام مختلفو الشعوب والأجناس، ألا يوجد «حلبـى» يكون آية لما كان عليه أسـلافنا ودليلا على أن تلك الروح الطيبة لم تنزع منا أو الغيرة والحمية وشـهامة الإيمان لم يزل بها مقام من نفوسـنا. لا ريب عندنا أن أية حركة جزئية كانت أو كلية فى أى قطر مـن الأقطار التى لها تعلـق بحكومة الإنجليز يوجب إحباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها.

أمـا لو فاتت المسـلمين هـذه الربكة التى يعانـى الإنجليز ما يعانون فيها فليسـتروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشـوا أنفسهم بدعـوى الإيمان واتباع القرآن فإنما هى ألفاظ على طرف اللسـان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان.

«مـع هذا كله نقول: إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون

عارضا يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف، لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورًا يبهر الأبصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار، وأن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوجد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريبًا، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الكهف: آية ١٧].

الوهم

من مقالة نشرت فى العدد نفسه:

«ألا قاتل الله الوهم. الوهم طورًا يكون مرآة المزعجات ومجلى المفزعات، وطورًا يكون ممثلاً للمسرات حاكيًا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويًّا والقريب بعيدًا والمأمن مخافة والموئل مهلـكًا، الوهم يذهل الواهم عن نفسـه ويصرفه عن حسـه، يمثل الموجـود معدومًـا والمعدوم موجودًا، الوهم فـى كون غير موجود وعالم غير مشـهود يخبط فيه خبط المصروع، لا يدرى ماذا أدركه ومـاذا تركه، الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسـانية وهى فى ظـلال الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسـلطت على الإرادات فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون إلى سبيل ولا يستقيمون على طريق.

«كان الإنجليـز أمة مجتمعة القوى مسـتكملة العدد مسـتعدة للفتوحات، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهـل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشـرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا وكرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التى أثارت فيهم خواطر الأوهـام، ثم زاد الوهـم قوة ما نصبه الإنجليز مـن حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المسـاكين وأذهلوهم عما فى أيديهم بل أخذوهـم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسـلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم، فاسـتغنت الأمة الإنجليزية بما سـلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها

حاكمة على أقطار واسـعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها، فلا ترى فى كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العَدد والعِدد، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على أنفس الأمة الإنجليزية، فهى دائمًا فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الإنجليز المتوزعة فى الأنحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء.

«ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًّا على الشرقيين محجوبًا عنهم بحجاب الوهم.

يمثل الوهم لكل شرقى أن الإنجليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقة فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعًا ضاريًا ومفترسًا قويًّا، فينكب عن الطريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه، بل لا نخطىء إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطًا على الغربيين كما هو متسلط

على الشـــرقيين، فالأوربيون كانوا ينظرون إلى إنجلترا فى أملاكها البعيــدة كما ينظــرون إليها فى جزائر بريطانيــا، وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحـــس الإنجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائمًا فى ســتره ولا ســتار أكثف من الوهم، ولهــذا نراهم فى كل حادثــة يجلبون ويصيحــون ويزأرون ليثيــروا بالضوضاء هواجس الأوهــام فتحول أنظار الناظرين، وتغشــى بصائر المســتبصرين، فتحــول دون اســتطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشــفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز.

«ذهــب الإنجليز إلى الهنــد فى قوى مجتمعة، وتســابقوا مع الفرنســاويين وهولانــدا والبرتغــال فى مــدن الأراضــى الهندية الواســعة، فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهــاء والمكر، وبما ســاعدهم على ذلك من غفلــة الهنديين لذلك العهــد، أو طيب قلوبهــم، فمالت النفوس إلــى الإنجليز اغترارًا وتغلبوا على تلك البلاد، واســتقلوا بأمرها شــيئًا فشــيئًا وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما اســتمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن (الإنجليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثــم إنا نــرى للإنجليز الآن في الهند الأصليــة والهند الصينية والبرمان[1] ســلطة علــى نحو مائتين وخمســين مليونًا من النفوس جميعها كاره لتلك الســلطة الإنجليزية طالب للتخلص منها بفضل أية سلطة ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمــم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز ولا تصــل إلى ما وصل إليه الإنجليز في الكبرياء والجبروت، ولكن مــع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع ســعة ديارهم وتباعد أرجائها وشــدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجــد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندى إنجليزى، مع أنه يوجد من المماليك الصغيرة التي لها نوع من الاســتقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواهــا لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندى، هذا فضلاً عمن يمكنه حمل الســلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الإنجليزية وزال اســتقلالها بالمرة، فلولا الوهم الذى اســتولى على المشاعر والحــواس حتى أُذهلها عمــا بين يديها بل عما هــو موجود فيها مــا بقيت هذه النفــوس الكثيرة العدد الفائقة القــوة فى قبضه قوم ضعاف يســومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المســاكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا إلى ضعف الإنجليز فى الحالــة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن اســتقلالهم لأنفسهم

(١) بورما.

وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة.

«يوجد فى الدول الأوربية من يهاب دولة الإنجليز اعتبارًا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدة رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقترب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد فى الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع)، تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة، ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه، يترقبون فى كل آن زحفًا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التى تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ومشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم».

التنبيه إلى مقاصد الإنجليز

كتبت فى آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م)

مقالة بعنوان (عماء بعض الناس فى مصر أو تعاميهم عن مقاصد الإنجلين) وجهت فيها الخطاب إلى بعض من خدعوا فى وعودهم. قالت ضمن ما قالت:

«ظهرت مقاصد الإنجليز وانكشفت مضمراتهم، وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكوبة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب فى مقاصده) يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه لينال بهم ما أشرنا إليه مرارًا، تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعًا، أن يميلوا مع ريح الحكومة الإنجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيرا، فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعت إلى بلادهم.

«والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمد والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طورًا بالسر وآخر بالعلن، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورث بورك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر[1] ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتاوى المهدية.

معه بقوله: ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا (نحن الإنجليز أن نديـم الإقامة فى البلاد؟ فلو لم يكن لدولة الإنجليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياســى الداهية يبتدر شيخًا من أجل المشايخ وأعلاهم مقامًا فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب؟!.

أجابه حضرة الشـيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنجليز فى معاهد مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء، ولكن كان اسـتدراكه مناقضًا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعــة لا تخفى علــى الصبيان فضلاً عن الراشـدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يسـتكنه مضمرات القلـوب ليتبين له ضروب السـير إلى ما يقصد من التســلط على أرض مصر حتى إذا سـد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر».

«أمـا آن لهـؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفســهم ويمدوا نظر الانتقــاد لحركات هــذا اللورد، أى إصلاح يقصــده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جندًا مصريًا ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟ إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشــرطة والخفر المسمى بالضباطة. ما هذا الاهتمام إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتســلط التام على مصر؟ هذا ســبيل ســلكه الإنجليز فى جميع فتوحاتهم كمــا نبهنا عليه

مرارًا وأن هذا الكيس الداهية الإنجليزى لا يحيد عنه بعد ما سلكه أسـلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما فى وسـعه لطرد العسـاكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنجليزيـة البريطانية أو الهندية تعلـلا بأخلاق المصريين وعدم أهليتهـم للخدمة النظاميـة، وعجزهم عن القيـام بوظائف الضبط وصيانة الراحـة، وبذلك يجرد الحكومة مـن جميع قواها وتكون السـلطة الإنجليزية سـائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية».

احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ٢٦ ذى الحجة لسـنة ١٣٠١هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م) فكان هذا العـدد آخر ما صدر فيها، وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م. فكأنها استمرت فى الظهور سبعة أشهر.

ويبدو أن تهاون الشـرقيين فى الإقبـال عليها وإمدادها بالعون والتأييد كان السـبب الأول لاحتجابهـا، وكان لمحاربة الإنجليز أثر كبير فى احتجابها، فقـد منعت دخولها إلى مصر والهند كما سـلف القول، فالأمم الشرقية والسياسـة البريطانية يتحملان معا تبعـة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين

ونبهت الغافلين، ومع قصر المدة التى عاشتها، فإنها عملت فى بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى فى عدة سنين، ولقد ظل أثرها بعد احتجابها باقيًا مدويًا فى الأذهان كلما توالت الأيام والأعوام، ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الإمام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد فى نفوس الشرقيين جميعًا.

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر سنة ١٨٨٩م (١٣٠٦هـ)، وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى، أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى إذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق.

ويبدو أن اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الإمام على جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية، ومن يتوسمان فيهم الخير، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الرأى وعده تراجعًا عن الكفاح السياسى وتثبيطا للعزيمة، ورجح رأى جمال الدين مؤقتًا فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى، وبدا من

أسلوب الجريدة أن الأستاذ الإمام اقتنع برأى أستاذه، على أنه حين عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩م رجع إلى فكرته التى أبداها فى باريس وانقطع إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى، وبلغ فيه الذروة، ولقد قلت فى هذا الصدد سنة ١٩٢٧م فى كتابى عن (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) «ونقطة الضعف فى شخصية (الأستاذ الإمام) هى تخلفه عن الكفاح السياسى، واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى، ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩م، فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن، وإنك لتلمح تراخى الصلات بينهما – حتى الصلات الشخصية – منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام[١] فإنك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد فى محنته ومنفاه، بل إن جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧م فلا تجد للأستاذ الإمام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى (العروة الوثقى). وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال»[٢].

جمال الدين وريان

جرت لجمال الدين فى باريس أبحاث مع الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان Irnest Renane فى العلم والإسلام، فقد ألقى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد محمد رشيد رضا الجزء الثانى.
(٢) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٥٤٢ الطبعة الأولى.

رينـــان فى (الســوربون) محاضرة فى هذا الموضــوع قال فيها: إن إنتــاج الأمم غير العربية أكثر من إنتاج الأمم العربية، وإن التمدن أكثـــره من إنتاج الفرس وغيرهم دون العرب، وزعم أن الإســـلام لا يشجع على العلم والفلسفة، والبحث الحر، وإن من اشتغل بالفلسفة من المســلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، أو كان فى حماية خليفة أو أمير من المؤمنين، وقد نشــرت هذه المحاضــرة فى جريدة الديبا الفرنســية Journal des - Debats وكان ممــن رد عليــه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك.

ورد جمــال الديــن على هذه المحاضرة، ونشــر رده فى جريدة الديبــا، وخلاصة رده: أن ما ذكره رينان عن الإســلام ليس هو من طبيعتــة ونتيجة تعاليمه، بل من عمل بعض من اعتنقوا الإســلام فى بعض العهود، وإن الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيســة الكاثوليكية لم يتركوا هذا الســلاح حتى الآن، وأما عن قوله إن الإســلام لا يشجع العلم، فإن الكل يعلم أن الشــعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الإســلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بســرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلــوم تقدما مدهشــا بيــن العرب وفــى كل البلاد التــى انضمت لسيادتهم.

وقد أكبر رينان هذا الرد، والتقى به وتباحث وإياه فى الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وســعة علمه وقوة حجته وقال عنه «كنت

أتمثل أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سـينا أو ابن رشـد، أو واحدًا من أسـاطين الحكمة الشرقيين» وقال إن جمال الدين الأفغانى خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس.